قصص المعلمين: تجارب قيِّمة وحكايات في التعليم

عبد الكريم حسين

اعتاد المعلمون أن يمارسوا التعليم كمهنة، يألفون فيها مع مرور الوقت عملهم وكأنه نوع من الروتين، الأمر الذي يجعل المعلم ينظر إلى تجربته بكليتها، وبالتالي فإنه لا يرى ما فيها من تفاصيل ونقاط قوة أو ضعف، وإذا كتب فإنه يكتب عنها ولا يكتبها. كما أن المعلم لم يعتد على أن يجمل خبراته التعليمية كقصة تعلم، يكتبها بضمير «الأنا»، ويسرد تجربته بتفاصيلها كافة دون خوف أو تردد، يتحدث تارة عن التعليم والتعلم، وأخرى عن خبراته وسلوك الطلبة، مع التركيز على أهم المواقف التعلمية التي مر بها أثناء تدريسه، وما زالت محفورة في ذاكرته المهنية.

ونادراً ما نسمع أن معلمين في فلسطين ينشرون كتاباً عن تجربتهم في مهنة التدريس، أو يكتبون تجربتهم التعليمية كقصة تعلم توثق أيام طفولتهم المدرسية، وترصد أهم المواقف التعليمية والتجارب الحية في مهنتهم، كي يستفيد منها معلمون آخرون عايشوا التجربة أو لم يعايشوها، وتعزز لديهم ثقافة الكتابة إلى جانب القراءة، ونقلها كفهم إلى الطلبة، فليس المهم أن يكتب الطالب ما يحفظ، بل المهم أن يكتب ما يفهم.

بدأ المعلمون المشاركون في برنامج التكون المهني في رام الله ونعلين، ضمن مسار اللغات والعلوم الاجتماعية بكتابة قصصهم الشخصية عن تجربتهم في التعليم، وأسئلة كثيرة تجول في عقولهم. ماذا نكتب؟ ولماذا نكتب؟ ومن سيقرأ قصتنا؟ وما هي التفاصيل المهمة في القصة؟ من أين نبدأ؟

يبدأ المعلمون في كتابة قصتهم التعليمية عن تجربتهم في التعليم بأيام طفولتهم المدرسية، فيتحدثون عن المواقف المثيرة والمحزنة في المدرسة، ثم ينتقلون للحديث عن الأستاذة الذين أثّروا فيه سلباً أو إيجاباً، ويتذكرون أسلوبهم في المدرسة، محاولين أن يكونوا مختلفين عنهم، ولديهم الدافعية والرغبة في التغيير، منهم من يستخدم الأساليب اللامنهجية في كسر روتين الحصة المدرسية، وآخرون يستخدمون أنشطة هادفة في سياق تعلمي في شرحهم للمادة، لكن سرعان ما يشعر المعلم في لحظة ما، وبخاصة إذا كان معلم جديد بالوحدة، وعدم تقبله من قبل المعلمين الآخرين، خوفاً من نجاحه في المدرسة، مع إن المدرسة للجميع، وليس للمدير أو المعلم، وهذا كان واضحاً في قراءة قصص المعلمين المنشورة.

وتبين من خلال قراءة القصص أن المعلمين يكتبون عن قصصهم وتجاربهم دون أن يكتبوها كقصة تعلم، يتحدثون عن تجاربهم في التعليم دون ذكر التفاصيل، والعبرة المستفادة منها، وهذا ليس ضعفاً أو تنقيصاً من خبراتهم، بقدر ما يمثل قيمة حقيقية في التعليم، وتجارب حية واقعية يمكن الاستفادة منها في دراسة بحثية عن التعليم.

ويلاحظ من خلال القصص طبيعة العلاقة بين المعلمين الجدد والمعلمين القدامى، وكيف تبنى تصورات المعلمين الجدد عن الطلبة والتدريس من خلال أقوال المعلمين القدامى غير المحسوبة عن الطلبة وغير الدقيقة عن المهنة، دون أن يقدروا حجم تأثيرها على المعلمين الجدد، ومنهم من يقدم النصيحة والمساعدة لهم، ولا يبخل عليهم بأي ملاحظة لتطويرهم وتصحيح أخطائهم. فالمعلمة وجدان أبو سالم،

تتحدث عن مديرتها في المدرسة قائلة: «كانت المديرة على الرغم من هيبتها ذات تأثير علي وعلى رحلتي التعليمية. فكانت دائماً موجهة لي ولا تبخل علي بأي خبرة لديها. أما بالنسبة لملاحظاتها على دفتر أبو سلك فكان يفيدني كثيراً، كانت تناقشني بأخطائي في الحصة، وتوضيح الأسلوب الصحيح الذي يجب أن استخدمه في الحصة».

ووصف المعلم حاتم مطاوع في قصته «حكايتي مع التعليم» المدرسة بأنها «يحدها من جميع الجهات سور عال، وفوقه سياج. ومدرسة ملئية بالطلاب صغاراً وكباراً من الصف الأول وحتى الثاني عشر. أعداد كبيرة في بقعة صغيرة». وهذا يمثل قراءة في المدرسة كحيز وفضاء اجتماعي، ويتطرق لهندسة المدرسة ودلالاتها. فيما معلمة أخرى تصف طالبات الصف السابع بـ«المشاغبات»، بناء على أول نصيحة حصلت عليها من مديرة المدرسة قبل البدء في التدريس. فالمعلمون الجدد يتأثرون بنصائح الآخرين، ما يجعلهم يحكمون على مهنة التدريس وكأنها «المعركة مع الطلبة»، كما قالت إحدى المعلمات في قصتها التعليمية، فالصورة التي يرسخها المعلمون القدامى في عقول المعلمين الجدد عن المدرسة أو الطلبة يصعب تغييرها، وسيبقون يتذكرونها ويبنون عليها أي موقف يمرون به، أو سيتعاملون معه، وهذا سيؤثر على أدائهم في المدرسة. وكما لكل باب مفتاح، فلكل صف في المدرسة مفتاح، والمفتاح دائماً يكون في يد المعلمين، يجب عليهم أن يجيدوا استخدامه وفي الوقت المناسب، وبالتالي فالقصص، تمكن المعلمين من الوعي بكيفية تشكل تصوراتهم عن المهنة، واكتشاف عمليات تشكلها التاريخي، والنموذج الذي يتأثرون به؛ سواء أكانوا معلمين سابقين أم معلمين زملاء.

وكما قال المعلم حلمي حمدان في قصته «أصبحت معلماً مختلفاً»: «سأقرأ الكتب التربوية، وسأتعلم مهارات جديدة في التعليم، وسأصلح الأجهزة الكهربائية، وأعمل سائقاً وأربي الأغنام، لم لا، ولكن سأصبح معلماً متميزاً متطوراً». جميل أن نعلم الطلبة وأن نتعلم منهم، وأن لا نتعامل مع مهنة التدريس باعتبارها مهنة لتوصيل المادة وشرحها للطلبة في المدرسة فقط، والحصول على الراتب في نهاية الشهر، علينا أن نتعلم حب المدرسة والتدريس، كالمعلمة فداء مسعد، حين كتبت في قصتها: «فلا أستطيع أن أحب الوظيفة وأعتذر عنها، فالمعلمة لم تكن وظيفة، وإنما مهمة تحمل مفاتيح كنز الحياة لتسلمها باستمرار لأجيال جديدة، مؤمنة أن رسالتها مدشنة بالعطاء والأمانة والإخلاص، لذلك فهي رسولة وليست معلمة».

في حين، كتبت المعلمة فدوى أحمد في قصتها: «كل سنة جديدة في مهنة التدريس تعلمني الجديد، وتغذي عقلي لأنشئ جيلاً جديداً مبدعاً، فعلى الرغم من كل ما يلقاه المعلم من متاعب، فإنها مهنة لها مذاقها الخاص الذي لا يضاهيه مذاق أي مهنة أخرى».

اشترك المعلمون في كتاباتهم قصصهم في أن السنة الأولى في التدريس صعبة، ولم تكن بالمستوى المطلوب لطموحاتهم، فهي ليست نهاية المطاف، وإنما بداية النجاح في المهنة، ومن سنة إلى أخرى، يكتسب المعلمون خبرة وتجارب قيمة، من الضروري توثيقها وتعميمها على المعلمين كافة، لبناء مشاريع تعلمية عليها يستفيد منها معلمون آخرون وطلبة. وهذا ما أكدته المعلمة أميرة ياسين في قصتها: «الأعوام تمر .. وكل عام كنت أكتسب خبرة جديدة، حيث أصبحت خبيرة بالمادة التعليمية لتلك الصفوف. أصبحت كذلك علاقتي بالطالبات أقوى، حيث كانت أعمارنا متقاربة، ما جعل هؤلاء الطالبات يشعرن بالارتياح».

مهم أن نكتب، ولكن الأكثر أهمية ماذا نكتب؟ فالمعلمون الذين كتبوا تجربتهم، سيستفيدون منها في الأيام القادمة، وستكون خطوة أولى نحو توثيق تجربتهم المهنية، ونواة لبناء مشاريع تعليمية في مدارسهم، تنطلق من قصصهم، كما ستكون مرجعاً للمعلمين كافة، وموسوعة من التجارب الحية التي يمكن لأي معلم أن يستفيد منها، فالأمة التي لا توثق تاريخها لا يمكنها إعادة إنتاجه، وكم نحتاج في فلسطين إلى إعادة إنتاج الأشياء.

عبد الكريم حسين – مركز القطان

من ورشة عمل نظمها المركز حول توظيف الرسوم المتحركة في التعليم.